العميقة للاحداث التاريخية ، من خلال موقعها في حركة التطور التاريخي ، ودورها في هذه الحركة . ومع انني انجزت كتابا حول التاريخ الفلسطيني الحديث ، معتمدا على امكانياتي ووسائلي العلمية المتواضعة والمحدودة ، فانني اعتقد ، ان كتابة التاريخ ، أقصد التاريخ الموضوعي ، ليست عملية فردية ، انها مهمة جماعية يشرف على انجازها « عقل جماعي » — ان صح القول — وقد كنت اقترحت في مقال سابق ان يتولى مركز الابحاث هذه المهمة .

تعود الجذور الحقيقية لـ «العقدة الفلسطينية» الى الحملة النابوليونية التي تمثل بالنسبة لتاريخ الصراع في الوطن العربي « نقطة تحول في سياسة الكولونيالية البريطانية ، فقد بدأت بعدها سلسلة « اتفاقاتها » مع امراء ومشايخ ولايات سواحل شبه الجزيرة العربية » حتى دفعت محاولة محمد علي وولده ابراهيم في اقامة الدولة العربية الكبيرة في مصر وسوريا الطبيعية ، والتهديد الذي مثلته هذه المحاولة للاطماع الامبريالية ، بالاضافة الى حفر قناة السويس فيما بعد ، دفعت الكولونيالية البريطانية على ان تلتقي بالصهيونية « من قبل ان تولد الحركة الصهيونية بحوالي نصف قرن ، فمنذ عام ١٨٤٠ اقترح بالمرستون ، وزير خارجية بريطانية ، الهجرة الى فلسطين « حتى تصون انجلترة سوريا لنفسها » . وقد لعبت التجارة دورا بالغ الاهمية في موقف بريطانيا من يهود الشرق : كتب جورج بردنغ « ان التجار اليهود الاجانب في دمشق هم الفئة الاغنى بين التجار » ، واضاف ، ان اكثر البيوتات التجارية تتاجر مع بريطانية . ص ١٢ .

(**ملاحظة** ، يغفل المؤلف الدور الكبير الذي لعبه الصراع الانجليزي — الفرنسي في لعب ورقة الصهيونية في الشرق العربي) .

في الفصل الثاني « ملاحظة على مرحلة ما قبل الصهيونية » يؤكد الدكتور توما مجددا تلك المقولة الماركسية القائلة ان اليهود لم يكونوا « طبقة واحدة بل طبقات ، مثلها في ذلك مثل سائر المجتمعات ، الا أنها كانت تقوم عادة حول نواة تجارية — مالية وتؤلف طائفة انعزالية بسبب نظام الغيتوات » ، ص ٢٦ ، ولم يكن الاضطهاد في العصور الوسطى مقتصرا على اليهود فحسب ، فلقد نفذ الاقطاعيون في ذلك الوقت « مذابح دينية ذهب ضحيتها أبناء الاقليات النصرانية في اوروبا (البروتستانت في فرنسا والكاثوليك في بريطانيا) » ص ٢٨ . وقد حطم انتصار الثورة البورجوازية في اوروبا جدران الغيتوات ، وفتح الطريق امام الاندماج والانعتاق اليهودي : الاندماج الاقتصادي الاجتماعي والثقافي ، « ونتيجة التطور غير المتعادل بين اقطار اوروبية كان من الطبيعي ان تتفاوت عملية انعتاق اليهود واندماجهم » ص٣٦ . وتجدر الاشارة الى ان اللاسامية ايديولوجية معاصرة تختلف عن معاداة اليهود في القرون الوسطى (نشأت ، كما يقول المؤرخون في سبعينات القرن التاسع عشر) « وشاعت بين الفئات المتوسطة التي كانت قلقة بحكم عدم استقرار اوضاعها الاجتماعية » ص ٣٨ . وليس من الصدفة ان تنشأ الحركة الصهيونية في حقبة تحول الرأسمالية الى امبريالية . فلقد رافق ظهور الامبريالية والبحث عن مناطق النفوذ ظهور اللاسامية . وبذلك التقى الصهيونيون واللاساميون على ارضية واحدة ومثلا وجها العملة : معاداة اندماج اليهود وانعتاقهم والبحث عن وطن لهم خارج القارة .

ويعود اختيار المنظمة الصهيونية فلسطين الى عاملين : اولا ، نشوء ظروف تساوقت فيها مصالح الامبريالية البريطانية والصهيونية ، وثانيا ، اكتشاف الصهيونيين انه من الاسهل استنفار جماهير الطوائف اليهودية لبناء وطن قومي في فلسطين بسبب اقترانها بالدين اليهودي . وبذلك لم تجد الصهيونية قاسما مشتركا لها مع الاشتراكية العلمية ، بل كان اصطدامها مباشرا بها على طول الخط ، وسعت الى جذب اليهود من الحركات الثورية وتخريبها .

وردا على المزاعم الصهيونية ، يبين المؤلف ان الاحتكاك الاول مع العرب الفلسطينيين كان عدائيا : شراء الاراضي من الاقطاعيين العرب سبب تصادمات بين الفلاحين العرب الذين كانوا يستغلونها وبين المهاجرين الجدد ، وقد كانت المعارك عنيفة . أكد أهرون كوهين ان المستعمرات الصهيونية الاولى اقيمت بعد اجلاء الفلاحين العرب عنوة . لقد أستهدف **العنف الصهيوني** اجبار المواطن العربي على الاستسلام ، من حيث ان الصهيونية مثلت صورة للمجتمع العربي بأسره ،